الإفصاحيات في المنجز اللساني العربي الحديث
–نقد وتوجيه–

د/ ليلى كادة
جامعة بسكرة

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى الحديث عن الإفصاحيات في المنجز اللساني العربي الحديث بوصفها تعبيرا لغويا يتتبعه عالم اللغة، فهو مصطلح حديث ليس بين طيات تأليف القدامى ما سبيله أن يوحي بأنهم عرفوه، وإنما عرفوا موضوعه معرفة سطحية لا غور ولا غوص فيها، وقد كان لاطلاع اللسانيين العرب المحدثين على الدراسات اللغوية الغربية الأثر الأكبر في دراسة اللسان العربي ورصد طاقاته التعبيرية على نحو أعمق مما كان يألفه أسلافهم قبل.

Résumé :

Cet article a pour but de parler de langage affectif en linguistique arabe moderne , il s'agit d'un terme moderne que les anciens ne savaient pas mais ils ont connu son thème superficiellement , et le grand impact sur l'étude de la langue arabe et le contrôle de ses énergies expressives d'une façon plus profonde que chez les anciens est survenu lorsque les linguistes arabes modernes ont eu connaissance des études linguistiques occidentales.

تعدّ الإفصاحيات مصطلحا حديثا، ليس بين طيات تآليف القدامى ما سبيله أن يوحي بأنهم عرفوه بوصفه مصطلحا قائما بذاته، وإنما عرفوا موضوعه معرفة سطحية لا غور ولا غوص فيها؛ إذ أدركوا القيمة الانفعالية في بعض التراكيب العربية، كالتعجب والندبة.

وقد كان لاطلاع العرب المحدثين على الدراسات اللسانية الغربية الأثر الأكبر في دراسة اللسان العربي ورصد طاقاته التعبيرية، فبدأ الاهتمام على التدريج بالجانب الانفعالي، وخصت تراكيبه بالدراسة على نحو أعمق مما كان يألفه أسلافهم من قبل، فكانت الإفصاحيات عند الدارسين العرب المحدثين بابا قائما بذاته في منظومتهم الفكرية، وقد اختلفت رؤاهم حول موضوعه، كما تباينت تصوراتهم حول ما يدور في فلكه من تراكيب وأساليب.

وحريّ بالبيان أنّ مصطلح الإفصاح لا يساق في أغلب الدراسات إلا مركبا على سبيل التابعية التوصيفية، فيقال: التركيب الإفصاحي، أو الإنشاء الإفصاحي، أو الأسلوب الإفصاحي، أو الجملة الإفصاحية، فماذا يعني مصطلح التركيب الإفصاحي في الدرس اللغوي الحديث؟ وبم يتقوم وجوده؟

لا غرو أن وظيفة اللغة الإنسانية لاتقتصر فقط على إمداد الفرد بالأفكار والمعلومات، وإنما تعمل أيضا على إثارة الانفعالات [1]، إذ يتوسل بها إلى التنفيس عما يتختلج النفس البشرية من ضروب الأحاسيس والمشاعر، ويتجاوز بها إلى إشراك الآخرين في الحالات الشعورية ذاتها. من هنا كانت اللغة الإفصاحية الانفعالية تعبيرا عن النفس الإنسانية بما يعتورها من حالات الرضى والسرور والغضب والنفور والاستحسان والاشمئزاز والدهشة والاستغراب وغير ذلك من ضروب المشاعر والانفعالات التي ينعكس أثرها على اللغة في مسارات تطورها وحياتها.

فتحت وطأة الانفعال يتفوه المرء بكلمات مدرجها لغة الوجدان؛ فالصرخات غير الإرادية الناشئة عن ألم قاس مفاجئ أو فرح غامر مباغت تكافئ دلاليا نظائرها في لغة المنطق، فقولك مثلا: (OH) معادلة لجملة: إني لفي ألم شديد [2]، وقولك: آه المسكين !

جملة ذات قيمة انفعالية جلية؛ إذا صيغت في لغة المنطق الجدلية صارت (أرثي لهذا المسكين)[3]، مع الفارق الجوهري –طبعا– بين لغة المنطق ولغة الانفعال؛ فاللغة الانفعالية "تنفجر تلقائيا من النفس تحت تأثير انفعال شديد" [4]، وتكون خاضعة لمنطق الانفعال والدفق الشعوري عند المتكلم، وتراها في لغة الكلام تقطع أجزاء متتابعة تتناسب في العدد والشدة مع الانطباعات التي يحملها المتكلم نفسه، أو مع الحاجات التي تحمله على التأثير في السامع، أما اللغة المنطقية، فأميل ما تكون إلى الترتيب والتماسك والترابط المنطقي [5].

فالإفصاحيات –تبعا لهذه المفارقة– قوامها التعبير بواسطة اللغة عن انفعالات المتكلم ومشاعره وحالاته النفسية بنبرة انفعالية تعين على توضيح القصد ودفع التعمية التي ينجر عنها اغتماض الغرض. فليس الإفصاح –إذن– انفعالا يتقصاه عالم النفس، وإنما هو تعبير لغوي عنه يتتبعه عالم اللغة؛ فالعواطف "لا تعني هذا الأخير إلا عندما يعبّر عنها بوسائل لغوية" [6]. والحقيقة أن الجانب الانفعالي من اللغة لم يدرسه الباحثون على اختلاف مشاربهم إلا مع بداية القرن العشرين[7]، حيث صار موضوع بحوث أسلوبية تتقصى الجانب التأثيري في اللغة، تحددت معالمها من خلال جهود "بالي" Belly رائد الدراسات الأسلوبية في مدرسة جنيف السويسرية [8].

وقد كان من آثار هذا الدرس أن التفت إليه اللغويون العرب، فاشتدت به عنايتهم، وصار مناط اهتمامهم، فاعتمد أساسا في تقسيم الجملة العربية في إطارها البلاغي؛ حيث أفضى–لدى بعض المعاصرين– إلى إضافة قسم آخر مستقل يدعى الجملة الإفصاحية[9]، ينهض بديلا عن الإنشاء غير الطلبي الذي كاد يهمله البلاغيون القدامى ومن حذا حذوهم من المحدثين، ومؤدى هذا المصطلح هو: الإفصاح الذاتي عما تجيش به النفس البشرية من ضروب الانفعالات، وهو شبيه بما يسمى في اللغة الإنجليزية Language Affective، يحسن بعده في الكتابة أن نضع علامة التأثر (!)؛ ذلك أن القيمة الانفعالية تستبين بوضوح من خلاله، ففرق بين قولك: شتان زيد وعمرو، وقولك: افترق زيد وعمرو، فلا تصلح الثانية لتفسير الأولى؛ إذ لا تساويها في المعنى، ونظير ذلك وجه

التخالف بين (أوّه) وبين (أتوجع)، فقولك الأول يحمل الناس على نجدتك بينما يحملهم القول الثاني على سؤالك مم تتوجع؟ [10]

والمدقق في الإفصاحيات يجدها تعبر عن القيمة الانفعالية على وجه العموم بصورتين: إما بالإفراد، وإما بالتركيب [11]، فالأولى أن تشرب ألفاظ معينة من اللغة قيمة انفعالية، كالخوالف في اللغة العربية، فإنها تعبر على انفرادها عن طبيعة الانفعال والتأثر، وهي قريبة الشبه بما يسمونه في الإنجليزية Exclamation[12]، والثانية مدارها التركيب أو الأسلوب، كالتعجب، والمدح والذم، والندبة ونحوها مما يعبر به عن مختلف ضروب الانفعالات والأحاسيس.

وحري بنا أن نشير إلى أن مصطلح الإفصاح حديث النشأة في الدراسات النحوية والبلاغية؛ فلا قبل للنحويين ولا البلاغيين بلفظه من قبل، فأول من ساقه إلى الدرس اللغوي العربي "تمام حسان"؛ فتردد صداه في مؤلفاته في أزيد من موضع وأكثر من مرجع، ثم ذاع صيته من بعد بين شتى الدارسين العرب.

- **الإفصاحيات عند تمام حسان:** يعد تمام حسان بحق أول الباحثين العرب استعمالا لمصطلح الإفصاح، وإدراكا لوظيفته التأثرية الانفعالية. وقد صدر في ذلك كله عن التأثر بالمناهج اللسانية الغربية التي أضحت أرعى ما تكون للقيم الانفعالية من الخطاب، فهو تبعا لذلك يحصر وظيفة اللغة في التعامل والإفصاح، ومؤدى التعامل: استخدام اللغة بقصد التأثير في البيئة الطبيعية أو الاجتماعية المحيطة بالفرد، ومفاد الإفصاح: استعمال اللغة بقصد التعبير عن موقف نفسي ذاتي دونما التأثير في البيئة، ولا يتحتم في هذه الحالة أن يكون عنصر الإسماع مقصودا[13].

وهكذا بدأ التركيز على المعنى الدلالي للجملة؛ أي: على المعنى المنطوق أولا[14]. وترتب على هذه الأولوية أن آثر هذا الباحث أن يطلق مصطلح التركيب الإفصاحي على ما كان يعرف عند القدامى بالإنشاء غير الطلبي، ووجهه في ذلك أن معظم الأساليب الإنشائية غير الطلبية أساليب إفصاحية تستقل بخصوصياتها، وتنفرد بعلاماتها سواء من حيث الصيغة أم الترتيب أم الوظيفة. فأغلب وسائل التعبير الإفصاحي يجري ضمن قسم الخوالف، وهو قسم مستقل بذاته من أقسام الكلم العربي [15]، مثلما

تساق أكثر تراكيبه في أحايين غالبة على تراتيب محفوظة كأنها تعابير مسكوكة تجري مجرى الأمثال، تستخدم للتنفيس عما في النفوس من دفقات الشعور من حب وسرور، أو بغض ونفور [16].

من خلال هذا المنظور يسوق تمام حسان الجملة الإنشائية وفق تقسيم ذي أركان ثلاثة [17]: طلبي، وشرطي، وإفصاحي. تحت كل قسم منها تفريعات على نحو ما تظهره الخطاطة التالية [18]:

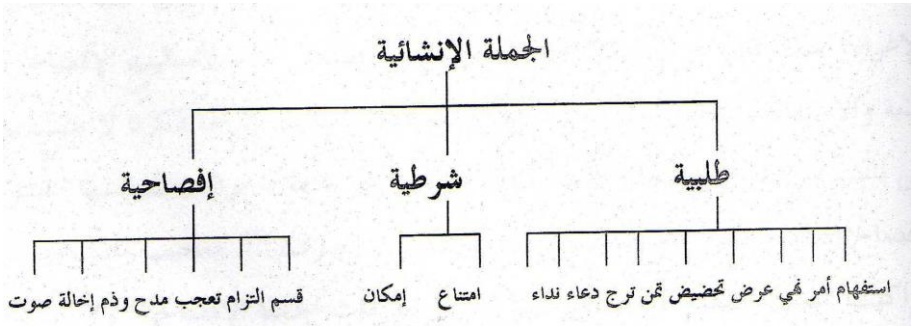

وسبيل هذه الخطاطة أن تظهر على جهة الخصوص أن تمام حسان يحدد مدار الجملة الإفصاحية بموضوعات ستة هي: القسم، والالتزام (صيغ العقود)، والتعجب، والمدح والذم، والإخالة (أسماء الأفعال)، والصوت (أسماء الأصوات).

تقسيم تمام حسان في ميزان النقد: إنّ تحديد موضوعات الجملة الإفصاحية بهذه الكيفية لا يخلو–على أهميته– من المآخذ، إذ تقوم بصدده طائفة من الملاحظات من شأنها أن تحصره في مساحة أضيق مما هي عليه بإخراج ما ليس منه، وإدخال ما هو من صميم موضوعاته، وإجمالها فيما يلي:

الملاحظة الأولى: يتضح اضطراب تمام حسان في مسلكه هذا من خلال إعراضه في الخطاطة السابقة عن إلحاق بعض التراكيب بها كالندبة، والاستغاثة من النداء، وقد نص على لحوقها بالأسلوب الإفصاحي على المستوى النحوي في موضع متقدم من مؤلفه حيث قال: " فهي جميعا تستعمل في الأسلوب الإفصاحي الإنشائي التأثري الانفعالي الذي يسمونه Affective Language وتلك هي الإخالة والصوت والتعجب والمدح والذم، وربما ألحقنا به على المستوى النحوي لا الصرفي أساليب أخرى كالندبة

والاستغاثة من النداء" [19]. والغريب أنه يضم في موضع آخر أساليب أخرى كالتحذير والإغراء، حيث قال: "ولربما كان من المستحسن أن يضم إلى هذه الأساليب الإفصاحية الندبة والاستغاثة والتحذير والإغراء، ولكن ضم هذه الأساليب إلى ما ذكرنا لا يتم على المستوى الصرفي لأن هذه الأساليب الأخيرة لا يعبر عنها بالخوالف فلها مثل الإفصاح المذكور لكن على مستوى النحو لا مستوى الصرف" [20]. فعجيب إغفاله هذه التراكيب النحوية المتقدمة، وهو في سبيل تقصي تفريعات الجملة الإفصاحية، ولاسيما أن الجملة ينظر إليها من خلال المستوى النحوي لا الصرفي ! فما هذه إلا عثرة من عثرات الباحث كان الأولى تجنبها حرصا على انسجام الموضوع واتساقه.

الملاحظة الثانية: جميع الموضوعات التي ساقها الباحث في سبيل تحديد مدار الجملة الإفصاحية كان الأولى أن تنعقد على أساس منضبط من العلاقة التركيبية التي تقوى على أداء الغرض وبيان القصد، إلا أن قبيلا من الأقسام المعروضة ها هنا لا ينهض على هذا الأساس البتة، إما لافتقاره إلى العلاقات التركيبية السياقية، وإما لافتقاده عنصر الإفادة، وتفصيل ذلك فيما يلي:

1. خالفة الصوت: ليس في طوقها أن تقوم على أساس من التركيب الجملي، فقصاراها أنها صيغ لا عاملة ولا معمولة أشربت معنى الإفصاح على المستوى الصرفي لا النحوي؛ لذلك لا تقوى أن تشكل جملا إفصاحية؛ وإنما منتهاها أن تشكل صيغا إفصاحية، فاللغة الانفعالية –وقد تقدم– تلتبس بمعنى الانفعالية من جهتي: المفردات وترتيب عناصر التركيب[21]، وخوالف الأصوات تلتبس به من الجهة الأولى لا الثانية، فلا يكون دقيقا ولا حصيفا إجراؤها في نطاق الجمل. ونظيرها ما وضع لزجر ما لا يعقل كـــ: هلا لزجر الخيل عن البطء، أو دعاء ما لا يعقل كـــ. أو لدعاء الفرس، أو حكاية صوت الحيوان كـــ: غاق، أو حكاية اصطكاك الأجرام كـــ: طاق لحكاية صوت الضرب. ونظيرها أيضا بعض الخوالف الصوتية المركبة تركيبا مزجيا كـــ: قاش ماش حكاية لصوت القماش.[22]

2. أسلوب الالتزام: ويراد به صيغ العقود الجارية في الإجارات والأنكحة ونحوها كبعتكه، واشتريته، وزوجتكها[23]. وهي معدودة عند القدامى ضمن أساليب

الإنشاء غير الطلبي لخروجها عن احتمال التصديق أو التكذيب من جهة، وفقدانها الدلالة على الطلب من جهة أخرى، إلا أن إجراءها هذا المجرى فيه عدول عن الصواب ومفارقة له. فقصاراها أنها صيغ خبرية منقولة إلى الإنشاء من طريق المجاز لا غير[24]، فالأجدى الحفاظ على خبريتها حين دراستها درسا فاحصا؛ لأن الإنشائية لا تلابس صيغها على سبيل الحقيقة، وإنما تلابسها باعتبار ما سيكون من خلال استحضار ما يحيط بالسياق اللغوي من ظروف وأحوال على سبيل التجوز في القول والعبارة. فليس بعد هذا ما يدعو إلى عدها أسلوبا إفصاحيا تأثريا، لاسيما إذا عُلم خفاء العنصر الانفعالي بها؛ إذ العقود بعامة من إملاءات العقول. فمن الشطط حملها كرها على ما يختلج في الصدور من ضروب الأحاسيس والشعور. فإخراج هذه الصيغ من حيز الجملة الإفصاحية أحرى بالالتزام من إمضاء مفردات أسلوب الالتزام ضمن هذا الباب.

3. أسلوب القسم: حمل هذا القسم الأسلوبي على محمل الإنشاء غير الطلبي محمل قويم لا شية فيه مبني على أساس سليم، أجمع الدارسون على الأخذ به قديما وحديثا. بيد أن سوقه إلى باب الجملة فيه نظر، كما أن إشرابه القيمة الانفعالية لا يقبل إلا على حذر؛ ذلك أن القسم لا يعدو أن يكون مؤكدا من مؤكدات الخبر والإنشاء [25]، ولا يمكن على أية حال إنزاله منزلة الجملة التي هي بحاجة إلى جواب إلا على سبيل التمحل في التقدير، والعسف في التأويل؛ مما من شأنه أن يخرجه من طبيعته الإنشائية إلى طبيعة خبرية هو منها براء. فقولك مثلا: والله إن محمدا لرسول، جملة واحدة لا تقطع قطعتين، ولا تفترق إلى شقين، أصلها: محمد رسول، وما دخل عليها لا يزيد عن كونه عناصر توكيد لا تستقل بذاتها [26]. وقد سبق ابن جني إلى درك معنى التوكيد الذي يجتلبه القسم حين قال: "اعلم أن القسم ضرب من الخبر يذكر ليؤكد به خبر آخر" [27]، وسبقه إليه الخليل بن أحمد حينما قال: "وإنما تجيء بهذه الحروف؛ لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به كما تضيف مررت به بالباء، إلا أن الفعل يجيء مضمرا في هذا الباب والحلف توكيد"[28]. أما المضي إلى تقدير فعل مضمر عامل لا يجوز إظهاره في بعض الأحيان مفسر بـــ: أقسم، فمسلك في غاية الفساد، لا يدعو إليه إلا محاولة طرد أحكام النحاة الشكلية في جميع منطوقات اللغة العربية حتى ولو كانت تتأباها وظيفيا. فلا يستقيم لدى

هؤلاء قيام الجار والمجرور مثلا –وعليه أغلب صور القسم– مستقلا عن غيره بلا تعلق بالفعل، ومثل هذا السلوك مناف تماما لمنطق اللغة، وقد لا يتنافى مع لغة المنطق، وشتّان ما بين المعنيين!.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس يتضح على جهة القطع مدى امتصاص أسلوب القسم للمعاني الانفعالية، وإنْبائه عن وظيفة الإفصاح، وإلاّ لتأتى إشراب هذه القيمة لكل عنصر توكيدي مهما كان شكله كنوني التوكيد، وإنّ، ولام الابتداء، واللام المزحلقة، والمفعول المطلق، والتوكيد بالتكرار أو بالقصر أو ببعض الألفاظ كالنفس والعين ونحوهما.

فالأولى إخراج القسم من باب الجملة الإفصاحية لعدم انطباق معنيي: الجملة والإفصاح عليه. فليس بجملة؛ لأنه لا يستقل بمعناه، فليس لك أن تقول: والله أو بالله أو تالله وتسكت، بل لا مناص من أن تُردف العبارة بجملة إسنادية تَتِمَّةً للحديث، واستكمالا للغرض. فهو لا يعدو أن يكون مركبا غير تام يُجاء به في سبيل توكيد الخبر، وهو في هذا يجري مجرى الصيغ المسكوكة التي لا داعي إلى التمحل في توجيهها الإعرابي على أن جارها ومجرورها متعلقان بفعل تقديره: أقسم.

فلا وجه إذن لإدراج أسلوب القسم ضمن أُطر الجملة الإفصاحية، فإخراجه أحقّ من إدراجه؛ نظرا لاقتصاره على تقصي أشكال مخصوصة من التركيب، لا التراكيب كلها كيفما كان وجهها. فلفظة (بناء) التي تحتل موقع الصدارة من عنوان البحث أدل على القصد، وأدعى إلى الحصر. فحسبها أنها تقصر التركيب المدروس على التام منه لا غير؛ إذ الجملة تقوم على علاقات تراكمية، يبنى بعضها على بعض خلافا للمركبات غير التامة القائمة على تجاورية عناصرها بامتدادها خطيا لا غير.

الملاحظة الثالثة: استلحاق بعض الأساليب النحوية كالندبة، والاستغاثة، والتحذير، والإغراء بالجملة الإفصاحية استلحاق فيه نظر؛ فمنه ما يقبل، ومنه ما يرّد، وهذا بيانه:

1. أسلوب الندبة: أسلوب إفصاحي خالص حقيق بالباحثين إلحاقه بتراكيب الجملة الإفصاحية الانفعالية، وينهض على أساس علاقة غير إسنادية شأنه في ذلك شأن

النداء، إلا أنه ليس منه إلا في الصورة الظاهرة، ولا غرابة في الأمر تبعا لمبدأ تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد.

فالتركيب الواحد تختلف معانيه باختلاف سياقاته الاجتماعية من ظروف وأحوال تحيط بعملية التواصل اللغوي. فالأولى ألا ينخدع الباحثون بالشراكة الشكلية القائمة على أساس من التناظر في المباني المفردة أو المركبة، وأن يلتفتوا إلى الشراكة الوظيفية، فيجعلوها أساسا في نسبة بعض التراكيب إلى بعض.

2. أسلوب الاستغاثة: حد جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) الاستغاثة بقوله: "والاستغاثة نداء المستغيث المستغاث" [29]، وما الدعاء في حقيقته إلا طلب ذو مجرى تصاعدي، وما السين والتاء إلا دليل عليه. فكيف يصح في الأذهان بعد هذا إخراجه من حيز الجملة الطلبية وإدراجه ضمن أساليب الجملة الإفصاحية؟! فالوظيفة الطلبية هي التي تلابسه في المقام الأول وعلى نحو أوضح لا غبار عليه، أما الوظيفة الإفصاحية التي ترتد إلى انفعالات المستغيث أو هيجانه جراء الخوف والفزع، فتأتي في المقام الثاني لا في المنزلة الأولى، وهي تلبس به من جهة تقاطع هذه الوظيفة مع جميع أشكال الخطاب، ولكن بدرجات متفاوتة يقول فاندريس في شأن ذلك: "لا تكاد توجد جملة، مهما كان حظها من الابتذال، لا تخالطها عناصر انفعالية. فإذا قلت: (بيير يضرب بول) بدا علي أني أعبر بكل بساطة عن علاقة بين شخصين يجمع بينهما حدث الضرب. وهذا على الأقل ما يزودني به التحليل المنطقي المزعوم. ولكن الواقع أن مثل هذه الجملة لا يمكن مطلقا أن تكون عبارة منطقية عن علاقة ما؛ إذ إني أضيف إليها دائما ألوانا انفعالية" [30].

إذا كان الأمر كذلك؛ فسبيله ألا يدع مجالا لإخراج أسلوب الاستغاثة من سياقات الجملة الطلبية مع ما يختزنه من قيمة انفعالية مصاحبة لا أصلية.

3. أسلوب التحذير: وهو "إلزام المخاطب الاحتراز من مكروه بـ (إيا) أو ما جرى مجراه" [31]، نحو قوله تعالى: ﴿♦♦□♦◆♦✂ ★✎ ❐◆⑩◆♋←◑⑩◆♍﴾ [32] استغناء بذكر المحذر منه عن ذكر المحذر. وليس بخفي اكتناز هذا الأسلوب بالدلالة الطلبية، وما يتراءى فيها من عنصر انفعالي

فيتموضع في المقام الثاني، ولا مسوغ لإفراده بالعناية وحمل التركيب اللغوي عليه، فشأنه في ذلك كشأن أسلوب الاستغاثة.

4. أسلوب الإغراء: وهو "إلزام المخاطب العكوف على ما يحمد عليه" [33]، كقول الشاعر العربي [34]:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ*كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَح**

ومؤدى هذا التعريف الانبناء على الدلالة الطلبية والإنباء بها، وهو في ذلك نظير أسلوب التحذير يجري مجراه، ويساق مساقه، ويأخذ حكمه، وقد أغنى القول عن إعادته.

تحقيق القول فيما سبق أن الندبة حقيق استلحاقها بتراكيب الجملة الإفصاحية بجامع من الوظيفة الانفعالية، على خلاف الأساليب الأخرى التي لا يدعو إلى استلحاقها بها داع وظيفي قوي يطغى على القول لينحرف به عن مجراه. ولعل هذا ما حدا بتمام حسان أن يغير من خطاطته تلك بعض الشيء في كتابه (الخلاصة النحوية) [35]، ويعدلها بعض التعديل بإدخال الندبة وإخراج أساليب الاستغاثة، والتحذير، والإغراء من مدار الإنشاء الإفصاحي.

فمن الواضح جدا بعد هذه الملاحظات النقدية أن تمام حسان لا يقر مصطلح التركيب الإفصاحي عنده على مدار واحد تسبح في فلكه موضوعات محددة، فهو لا يلبث أن يغير رأيه من كتاب إلى آخر، وهو موقف سليم من الوجهة المنهجية ينشأ من تعميق النظر في الموضوع قيد الدرس، إلا أنّ اختلافه بين ثنايا المؤلف الواحد يعد اضطرابا في المنهج قد ينجر عنه سوء فهم القارئ للمعنى المراد.

هذا، وقد اقتفى بعض الدارسين المحدثين آثار تمام حسان، فأخذوا بمصطلح الإفصاح، ووظفوه في دراساتهم مع فارق النظر في تحديد موضوعاته وحصر مداراته بين موسع ومضيق على نحو ما يلي:

- **الإفصاحيات عند عبد القادر مرعي خليل:** يوسع عبد القادر مرعي خليل دائرة الإفصاحيات إلى أبعد حد، ويفتح بابها على مصراعيه؛ لتشمل كلا من: النداء، والاستغاثة، والندبة، والتحذير، والإغراء، والتعجب، والمدح والذم، والاختصاص، والقسم، وأسماء الأفعال، وأسماء الأصوات؛ إذ يمكن درج هذه التراكيب جميعا تحت ما يسمى الجملة

الإفصاحية [36]. وهذه التوسعة من شأنها أن تتجاوز الحدود التي رسمها تمام حسان لهذا المصطلح في (اللغة العربية معناها ومبناها)، لتطبق إحكامها على أسلوبي النداء والاختصاص.

- **الإفصاحيات عند سناء حميد البياتي:** وليس ببعيد عنه ما سلكته سناء حميد البياتي في سبيل تمحيصها اللغة الانفعالية، حيث قامت بتصنيف الأسلوب الإفصاحي في طريقة تعبيره عن المواقف الانفعالية إلى صنفين [37]:

1. الأسلوب الإفصاحي المعبر عن المعنى بلفظة واحدة، نحو: (كخ) لزجر الطفل، و (أف) للتعبير عن الضجر. ففي مثل هذه المواقف تستخدم اللغة بمفردها للإفصاح عن المعنى الانفعالي.

2. الأسلوب الإفصاحي المعبر عن المعنى بمركب ثابت لا يتغير ولا يخضع في أغلب الحالات للتحليل المنطقي.

وقد ساقت الباحثة أقسام الإفصاحيات في مدار خماسي لا يتخطى التراكيب التالية: النداء، والاستغاثة، والندبة، وأسلوب التعجب، وأسلوب المدح والذم [38]. وهي بهذا التحديد تشترك مع مرعي خليل في استلحاق النداء بباب الأساليب الإفصاحية، وإنه لاستلحاق هش لا وجاهة له لا يخلو من العسف والعنت، يؤنسك بتركه جهات النظر التالية:

إن الذين أشربوا النداء القيمة التأثرية الانفعالية يعتلون لذلك من جهة "أن النداء عنصر تحويلي يدخل على الجملة الخبرية أو الطلبية ليحولها من دلالتها الإخبارية أو الطلبية إلى جملة تحويلية إفصاحية تفيد التنبيه، كما أن الشق الأول من جملة النداء لا يعد جملة تامة يحسن السكوت عليها، بل هو عنصر تأثري إفصاحي يستخدم لتنبيه المخاطب وتهيئته لاستقبال ما سيقوله المتكلم" [39].

إن إرسال النظر في هذا المنطق التحليلي التعليلي ليكشف عن اعوجاجه وقله حظه من التوفيق؛ ذلك أن مثل هذا الأسلوب ليس له مرجعية وظيفية انفعالية البتة، على خلاف الزعم المنوط به. فما كان ليفصح عن التأثر ولا الانفعال الذي يترسب في أغوار النفس الإنسانية، بل قصاراه أنه عنصر تأثيري لا تأثري؛ إذ يتوسل به إلى تنبيه المخاطب

وحمله على الالتفات. وهذا المعنى لا يجرى في سياق الإفصاح عن الوظيفة التعبيرية الانفعالية التي "تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع" (40) متعلق بذات المرسل، وإنما مجراه الوظيفة الانتباهية التي توظف لإقامة التواصل وتمديده أو فصله، كما توظف لإثارة انتباه المخاطب أو التأكد من أن انتباهه لم يرتخ (41). وإن كان رومان ياكبسون يسوقه مساقا آخر، فيحمله على الوظيفة الإفهامية التي تتوجه نحو ذات المرسل إليه (42).

ويمكن سوقه من جهة أخرى على الوظيفة الفاعلة لا الانفعالية؛ ذلك أن الإنسان لا يتكلم ليصوغ أفكارا فحسب، بل يتكلم أيضا بهدف التأثير في نظرائه، والتعبير عن أحاسيسه وتأثراته، وتبعا لذلك يتأتى التفريق بين الثالوث اللغوي التالي: اللغة المنطقية، واللغة الفاعلة، واللغة الانفعالية. فاللغة الفاعلة ميدانها عبر مجرى التاريخ الأمر في الفعل والمنادى في الاسم (43).

فليس بعد هذا ما يدعو إلى استلحاق أسلوب النداء بالتعبيرات الإفصاحية، فلا وجاهة له في ضوء النظر اللغوي.

ونظيره في المسلك أسلوب الاختصاص، فلا يحتمل الوظيفة الانفعالية إلا على سبيل التمحل والادعاء. فمنتهاه أنه يفيد التحديد وتخصيص المذكور بالفعل وتخليصه من غيره. وما ينتابه من مشاعر الفخر والاعتزاز فمعنى طارئ غير لازم يختلف باختلاف السياق، فنقول: نحن العرب نكرم الضيف، فتجد لمعنى الفخر والتعظيم منفذا في العبارة، وتقول: نحن العرب أضعف الأمم أخذا بسلطان العلم، فلا تجد لذلك المعنى أثرا، بل تجد لمعنى الاحتقار والازدراء حظا فيه. والحقيقة أن هذين المعنيين لا ينشآن عن الاختصاص، وإنما منشؤهما العبارة نفسها حتى وإن تجردت من هذا الأسلوب، كأن تقول: نحن نكرم الضيف، أو نحن أقل الأمم أخذا بسلطان العلم. فليس لأحد أن يدعي أن هذين التركيبين يفارقان الدلالة الخبرية إلى المعنى الإفصاحي لمجرد امتصاصها لتلك القيمة الانفعالية الطارئة التي مدرجها في الأصل لغة الوجدان؛ ذلك أنها قيمة إضافية لا أصلية ولا أساسية، فلا اعتداد بها، فهي تلابس ضروب القول جميعها حتى ولو كانت العبارة منطقية مع فارق القيمة الانفعالية.

حاصل النظر فيما مضى أنّ الإفصاحيات لم تقر على وجهة واحدة، حيث وقف الباحثون حيالها بين مضيق لدائرتها وموسع، فتجاذبها تيارا المد والجزر على نحو واضح. لكن لا يقر من ضروبها إثر تدقيق النظر واستدامته إلا الموضوعات التي مدارها: التعجب، والمدح والذم، والندبة، والإخالة.

الهوامش:

(1) ينظر: أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية وأهميتها ومصادرها ووسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 36.

(2) ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1992، ص 53-54.

(3) ينظر:ج. فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (د، ن)، ص 183-184.

(4) ينظر: فندريس، اللغة، ص 194.

(5) نفسه، ص 193-194.

(6) نفسه، ص 185.

(7) ينظر: نفسه، ص 183.

(8) ينظر:عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس،1397هـ-1977م، ص 36.

(9) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1418هـ-1998م، ص124.

(10) ينظر: المرجع نفسه، ص 88-113-116.

(11) ينظر: فندريس، اللغة، ص 186.

(12) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية، معناها ومبناها، ص 113.

(13) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 363.

(14) ينظر: تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب القاهرة،1421هـ-2001، ص123.

([15]) ينظر: فاضل مصطفى الساقي، أقسام الكلام العربي بين الشكل والوظيفة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1397هـ-1977م، ص 251.

([16]) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 114-115، وينظر: تمام حسان، الخلاصة النحوية، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 2000م، ص 148.

([17]) وقد عدل تقسيمه في (خلاصته النحوية، ص 137) بإخراج الجملة الشرطية، وجعلها مستقلة عن الخبر والإنشاء.

([18]) ينظر: اللغة العربية ومعناها ومبناها، ص 244.

([19]) المرجع السابق، ص 88-89.

([20]) المرجع نفسه، ص 117.

([21]) ينظر: اللغة، ص 186.

([22]) ينظر: همع الهوامع، 128/5.

([23]) ينظر: البيان في روائع القرآن، ص 57.

([24]) ينظر: محمد الطاهر الحمصي،الجملة بين النحو والمعاني، ص 218.

([25]) ينظر: علم المعاني، ص 7.

([26]) ينظر: عبد الجبار توامة، (المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي)، أعمال ندوة تيسير النحو المنعقدة من 23-24 أبريل 2001، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001م، ص 287-288.

([27]) اللمع، ص 241.

([28]) الكتاب، 497/3.

([29]) همع الهوامع، 71/3.

([30]) اللغة، ص 184.

([31]) همع الهوامع، 24/3.

([32]) الشمس/ 13.

([33]) همع الهوامع، 27/3.

([34]) ديوان مسكين الدرامي، تحقيق: خليل إبراهيم العطية وعبد الله الجبوري، بغداد، (د، ت)، ص 29.

([35]) ينظر: ص 13. بيد أنه يغفل في ص 137 عن ذكر الندبة في مخططه، مع أنه يوردها في ص 148 ضمن قسم الإفصاحيات.

([36]) ينظر: أساليب الجملة الإفصاحية في النحو العربي (دراسة تطبيقية في ديوان الشابي)، مؤسسة وام للتكنولوجيا والكمبيوتر، عمان، ص 55–75.

([37]) ينظر: سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للنشر، الأردن، ط1، 2003م، ص 433–434.

([38]) ينظر: المرجع نفسه، ص 434.

([39]) أساليب الجملة الإفصاحية، ص 171.

([40]) قضايا الشعرية، ص 28.

([41]) ينظر: المرجع نفسه، ص 30.

([42]) ينظر: المرجع نفسه، ص 29.

([43]) ينظر: اللغة، ص 182.